فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

٢٥ – تطور الحركة الفلسفية في المانيا

الناحية السلبية عن مذهب نيتشه

الانسان

للأستاذ خليل هنداوى

— ٥ —

يرى نيتشه شريعة العبيد ومثل الزهد وسلطة الكاهن تقوم أركانها على جملة أكاذيب فارغة ؛ وهو لا ينظر إلى الشريعة المسيحية نظرة الرافض لها ، وإنما يجد فيها خطراً كبيراً وتدميرا . إن قطيع المنحطين وقادتهم كاهنهم الزاهد تراهم وقد قضى عليهم بأن يغمضوا أعينهم عن بيان أصول الأشياء ، لكي يضعوا – موضع الامتحان والحقيقة التجريبية – شريعتهم وقيمهم الوهمية الضالة التي تالجوا بها حلّ أسرار الوجود . لو أدرك المريض حقيقة أمره ، وعرف مكان عافيته ، وموطن شفائه ، وعلم أن علاج الكاهن لا يزيح من أمله الحقيق شيئاً ، وإنما هو علاج ظاهر يعمل على تشديد الألم بدلا من أن يعمل على تخفيفه وشفاء صاحبه ؛ لو علم ذلك كله لرأيت المارة المسيحية قد انهارت دعائمها وانهدكت صروحها . إن المنحط الضعيف يتحرى عن مخفف حقيق لآلامه عند الطبيب أو عند الموت . وقد أحس الكاهن هذا الخطر فأخذ يحدث قرناءه دائماً عن الايمان ، وهو الاقتناع المبني على غير العقل ، عن الايمان الذي لا يحفل بحقيقة الأشياء ، وهل الايمان بحقيقته إلا أن تفرض وهما تشعر بضرورة وجوده في الحياة ، تفرض وجوده بأي ثمن كان

في كل عصر يرى الكاهن في الحكمة الدنيوية والعلم الواقعي الذي يدرس الوجود للعلم ، غير حافل بقواعد الدين ، يرى الكاهن فيهما خصمين عنيفين ، وهو يحلل كل وسيلة تصرف الانسان عن التأمل في الأشياء بعين نفسه ، وعن جلاء الحقيقة عارية مجردة من غير تشويه . وهذا ما لا يتساهل فيه نيتشه ، ولقد يغفر للمسيحية ما تبث في الانسانية من آلام ، وماعسى يضر الألم الانسان إذا كان الألم يصفيه ؟ وفي الحقيقة نرى الايمان الديني قد خلق أرواحاً كثيرة أفادت البشر ؛ ولم يكلف نيتشه نفسه بيان الآلاء التي قامت بفضل ثورة العبيد فأغنت النوع الانساني وظلت من الانقلابات المعتبرة في التاريخ . ونيتشه يعجب بالمنطق العظيم في المنطق الديني الكاذب ، وبالذهب الذي ابتدعه وظل يغذي الناس طيلة عشرين قرناً بالأوهام الخيالية ، وقد يعجب بالكاهن برغم أنه ينطوي على ارادة شريرة ، لأن ارادته تستمد شعورها من نفسها ، لا تحوك الأوهام حول الهدف الذي تقصده ولا حول الوسائل التي تصطنعها . وأما ما يستفز غضب نيتشه من العالم المسيحي فهو ذلك المحيط القدسي الذي يحيط به ، وذلك المزيج من المكر والغباوة والطهارة الكاذبة التي يتظاهر بها رجال الايمان . فاستفاق في نيتشه شعوره الوحشي وحبه للطهارتين المادية والروحية ، وجرأته في الذهاب وراء أقصى ما أشرف عليه عقله ، فثار وتمرد على هذا التدليس كله ، ثم انصرف عن هذه الجماعة وفي قلبه سأم من رجالها الذين غدا الوهم عندهم جزءا من الأجزاء التي لا يتم بدونها الوجود ؛ وهم لا يعرفون أنفسهم حين يخدعون ويخادعون وحين يكونون صادقين ، يعيشون أسرى أوهامهم حين يريدون أو لا يريدون ؛ وأعلن بأن المسيحية هي المسئولة عن تسميمها للبيئة العقلية والأدبية في أوربا

على أن جهود الكنيسة كلها في مناضلة العلم ذهبت عبثاً ، ومقاومتها للعقل البشري انطلقت أدراج الرياح ؛ فان في أوربا كثيرين من علماء الطبيعة – على اختلاف مناهجهم ومدارسهم – يعيشون في غير أكناف الدين والايمان ؛ هؤلاء هم أعداء الكاهن . ولكن سائلا يسأل : وما بال عقول هؤلاء لم تضع سداً يمنع تأثير الوهم المسيحي ؟ وكيف لم يفلح أصدقاء الطبيعة والحياة والعافية في تحطيم القيم المسيحية ؟

كان جواب نيتشه على هذا السؤال جواباً أدبياً ، يقول : إن هؤلاء العلماء لا يؤمنون بعلمهم ، ومعنى ذلك أنهم لا ينصرفون

يا صامتاً والريحُ تخفُقُ حَوْلَه ... والنبتُ يطربهُ بسجْعٍ خفيف
وتصايحُ الغِرْبان يُنذِرُ مَرْجَه ... بحَصيدِ ساقيَةٍ، وجَدْبِ خَريف
ورَبابةُ الرّاعي تُهدْهِدُ عِنْدَه ... قلباً يَهيم بلَحنِها المعْزوف
سَكْرَى من الأنْغام أسكَرَ شَدْوُها
آذانَ ثاغِيَةٍ وسمْعَ خَروف !
هلاّ شَجَتْكَ نُثاثةٌ من بائسٍ ... لهفانَ في كَنَفِ الأسى ملْفوف
روّى الزُّروعَ بصيِّبٍ من دَمْعِه ... وثوَى بقلبٍ في الظلام لهيف !

محمود حسن اسماعيل

إلى تبديل المثل الأعلى الديني بمثل أعلى من عندهم ؛ أو أنهم يؤمنون بعلمهم ويأتون بحل جديد للحياة يستمدون مادته من المثل الأعلى الشديد على الزهد ؛ أو أن رجال العلم هم رجال متوسطو الادراك ، عاجزون عن إبداع شريعة جديدة ؛ أو أنهم قوم زاهدون محتالون عالمون ؛ لا يختلف جوهر مثلهم الأعلى عن مثل الكهان

يشبه نيتشه هذا العالم « المتوسط » بامرأة عجوز لا تلد ولا تنجب . وهو قليل القناعة بنصيبه

والآن فلننظر في تعريف رجل العلم !

إن رجل العلم يتصل نسبه بذرية بشرية غير شريفة . تنطوي نفسه على خلال ذرية غير شريفة ، ذرية لا تأمر ولا تملك سلطة ، ولا تنفي شيئاً . إنه عامل دائب يدرك بشعوره حاجات قرنائه . إنه وارث أمراض ذرية غير نبيلة ، ملك عليه الزهو ومشى لا يتحرى إلا عن الأشياء السفلية في الطبائع . أما العظمة فهي بعيدة المنال عنه . وإن مما يجعل العالم جليل الخطر شعوره الباطن بأنه من ذرية متوسطة ، فهو والحالة هذه يدأب عاملاً على إبادة الرجل « الشاذ »

ولا ريب أن العالم يحيا بعيداً عن كل إيمان ؛ ألا ترى فطرته في كثير من المواطن توائم فطرة رجل الدين ، ثم يخالفه وينفر من ملامسته وملامسة أمثاله ، لأنه يعتقد كل الاعتقاد بأن رجل الايمان هو نموذج سفلي في البشرية ، وأن رجل العلم هو أسمى منه . على أن هنالك هوة سحيقة تفصل بين وجل الدين رجل الارادة الكبيرة المريضة ، المقاتل الظافر بفضل هذه الارادة ، والخالق قيماً يعتقد بصحتها ، وبين هذا الرجل العالم الجريء ، هذا القصير المعجب بنفسه الذي فقد إيمانه بنفسه وعلمه . يعمل كما تعمل الآلة ليزداد غواية وضلالاً ، ولينعتق من التفكير ، وليزيح من سبيله هذه المسائل المنلقة ؛ قد يكون عمله حسناً لو كان يعمل مستوحياً نفسه ، لكنه يعمل ليكون مأموراً عاجزاً عن إبداع قيمة جديدة عاجزاً عن أن يتذرع بارادة

لنحكم أن العالم « غير الذاتي » الذي نضجت فيه الحاسة العلمية قد ساد أمره فماذا ينتج منه ؟ لا شيء إلا مرآة . . . وآلة لا إرادة لها . . . إنه يشبه المرآة التي تعكس الأشياء ، ترتقب حتى تظهر عليها فتعكس مرآها ، وإنما غناه في أن يكون معبراً تمر به الأشياء . لا يحس ولا يلمس آلامه الشخصية . يعمل ما يستطيع ، ويعطي ما يستطيع ، ولكن ما يعطيه حقير لا قيمة له . هو لا يأمر ولا يخرب شيئاً ، يقول مع (ليبنز) : « أنا لا أحتقر شيئاً » . إنه آلة تتجلى فيها العبودية والخضوع والطاعة . مفتقر إلى معلم يهديه إلى الغاية المقصودة . وهو ليس بعلامة حركة جديدة ، ولا بعلة أولى . إنه وا أسفاه ليس بمعلم . إنه وعاء فارغ يتخذ لون السائل المراق فيه ، إنه فاقد الشخصية

ثم هاجم نيتشه الشكوكيين الذين يصل بهم علمهم إلى حيرة يتساوى فيها الصعود والهبوط ، والعلم والجهل ، وإنما يتميزون من رجال العلم بأن هؤلاء عاملون دائبون كالآلات ؛ أما الشكوكيون فهم عقول أضعفها تريُّضها الزائد في العلوم ، وهم ليسوا بشيعة واحدة ، فمنهم المتضارب والمتعادل المزهو بنفسه ، ومنهم النفس التي تبذل الجهد في كشف أسرار الوجود وقد دوختها أسراره حتى غدت تروح وتغدو كالخيال الدقيق ليس له من قرار

ألا ترى إلى زرادشت — نبي نيتشه — البشر بالسوبرمان قد سحب وراءه خيالا من هذه الأخيلة الضالة ، رافقته في كل مراحله ، قد طلقت كل إيمان كان فيه عزاء ، وحطمت كل الأوثان ، وفقدت إيمانها بالأسماء الكبيرة والرموز الفخمة حتى أضاعت غايتها في النهاية ، وضلت في زوايا الوجود الموحش هائمة بدون حب ولا رجاء ولا وطن . رآها زرادشت فلم يتمالك نفسه من الاشفاق عليها

ـ قال بكآبة : أنت ظلي !

إن الخطر الذي تفر منه ليس بحقير أيها المسافر !

إن أعلمك نهاراً سيئاً فاحترس من أن يكون مساؤك أسوأ .

إن السجن لأمثالك الطائشين قد يصبح نعمة لهم

أرأيت هؤلاء الماثلين للفسدين ، يجرجرون في قيودهم !

هؤلاء ينامون نوماً هادئاً لأنهم مرتاحون بطمأنينتهم

احترس في النهاية أن تغدو سجين إيمان ضيق ووهم قاس مرعب . على أن كل ما هو ضيق قاس هولك فيه إهواء وخديعة

إنك أضعتَ الغاية ، وكذلك أضعتَ سبيلك

يا لك من نفس ضالة طائشة ! يا لك من فراشة منهوكة القوى »

ولكن رجال العلم ليسوا جميعاً على هذا النحو الذي صوره نيتشه ، فهنالك رجال يقين من رجال العلم ، علم هؤلاء لا يقف عند قولهم : ماذا ندري ؟ هو علم وثاب يخلق إرادة ويبدع شريعة ومذهباً

(يتبع)

مفيد الشرابي